من أساطير الاغريق

٢ ـ خرافة جاسون

للأستاذ دريني خشبة

مساكين هؤلاء الآرجونوت ! (١)

لقد كانت رحلة شاقة مضطرمة بالمتاعب ، مليئة بالأشجان ، في بحر لجي وأمواج كالظُّلل ، ظلمات بعضها فوق بعض ، وأهوال جسام يأخذ بعضها برقاب بعض ، وطريق كله سَعالى (٢) وأغوال

لقد لقي الأبطال الصناديد من أمرهم رهقاً أي رهق ... فلقد أرسوا مرة بأرض شجراء باسقة الدوح ، نما أيكها واستطال ، وغلظت جذوعها واستوت ، فبدا لهرقل أن يصطحب غلامه هيلاس وينطلق في الغابة يقطع أغصاناً تصلح لأن يصنع منها مجاذيف للآرجو ، فأوغلا ... وكانت الطريق ملتوية مُضلة ... فلما أن قطعا من الأغصان شيئاً كثيراً ، أصاب هرقل ظمأ شديد لم يصبر عليه ، فأمر هيلاس أن ينطلق فيملأ جرة الماء التي كانت معهما من نبع قريب كانا يسمعان خريره يتلاشى كالصدى في سكون الغابة ... وذهب هيلاس ، وجلس هرقل ينتظره ... ولكن وقتاً كافياً طويلا مضى قبل أن يعود الفتى ... ثم مضى من الوقت ساعة أو نحوها ... ثم ساعتان ... ثم أكثر من ذلك ... ثم أكثر ... ماذا ؟ ترى ما الذي عوق هيلاس ؟ أواه! لقد كان هيلاس أجمل شباب الدنيا في ذلك الزمن ، ولقد كان له جسم سمهري ممشوق ، وصدر رحب أخيلي ، ووجه تمتزج فيه بداوات الرجولة والفتوة بقسمات الفتنة والجمال ، وعينان يترقرق في بريقهما لون من السحر لا يعرفه إلا العذارى ، ولا تحسه إلا قلوب الحسان ... وشفتان إن كانتا لرجل ، فقد سرقتهما له الطبيعة الفنانة من فم غادة ... وجبين متلألئ وضاح ، لمّاح كإشراقة الشمس في مولد الصباح ... تبارك الله ما كان أسبى وما كان أصبى ، وما كان أجمل هيلاس ! !

ذهب يملأ الجرة ... وما كاد ينثني ليضرب بها الماء ، حتى رأته عرائس الغيد ، الخرّد الأماليد ، فشغفهن وامتلك قلوبهن ، وبرزن من القاع ليسكرن بجماله ، وينهلن من حسنه ، وليقسمن بسيد الأولمب ما هذا بشرا إن هذا إلا ملاك كريم !! واقتربن من مكانه ، ثم لم يقوين على البعد فاقتربن أكثر ، ثم تأجج الهوى في فؤاد إحداهن ، وهي أجملهن ، إن كان فيهن من هي أجمل من أختها ، فهتفت به ، فلم يجب ، فجذبته من ذراعه جذبة نزل بها إلى الماء

— ماذا بالله عليك يا عروس ؟

— تعيش معنا !

— أعيش ممكن في الماء وأنا بشر ؟

— لن تكون بشراً بعد اليوم ، بل تكون إلهاً كريماً

— وأنى لي هذا وأنا غلام هرقل ومولاه ، وهو ظمئ إلى جرعة من ماء تشفي جُوادَه ؟

— ومن أذن لهرقل أن يرسو بأرضنا ؟ إذن هذا عقابه ! تعال ! سيمنحك الخلود سيد الأولمب !

وجذبته إلى القاع ... ولكنه لم يغرق ... وهو يعيش إلى اليوم مع هذا السرب من الحور العين لا يخدم أحداً ، ولا يجوع ولا يظمأ !

ونهض هرقل يقص أثر فتاه ، حتى إذا انتهى إلى النبع ، ووجد الآثار هابطة إلى الماء ، إلى غير عود ، صرخ صرخة

(١) المسافرون في السفينة (آرجو)

(٢) جمع سعلاة أو سعلاء وهي الغول أو ساحرة الجن

تجاوبت أصداؤها فى أركان النابة ، ثم جلس ساعة على حافى المقبرة التى ابتلعت هيلاس ينشج ويبكى ... وأقسم لا يذوقن من مائها قطرة ، وأقسم كذلك لا يصحبن الآرجو فى هذا السفر .. وعاد أدراجه ، بعد رحلة طويلة قطعها على قدميه إلى أرض الوطن ، وعاش حياته الطويلة القاحمة لا يفتأ يذكر هيلاس ، ولا يفتأ يبكى على هيلاس !

* * *

وأرست الآرجو فى شاطىء تراقيا ، ونزل جاسون فى نفر من رجاله يمتارون ، فعلموا أن ملكا أعمى يقال له فِنْيُوس ، شديد البؤس ، طويل الشقاء ، يحكم هذه المملكة ... ولم يكن عماه وذهاب بصره علة شقائه فحسب ، بل كان ذلك بسبب طيور غريبة الخلق ، لها جسم الطير وريشه ومخالبه ، ورأس الانسان ولؤمه وخَبَثُ طباعه ... كانت هذه الطيور تنزل بساحة القصر الملكي ، ثم تهجم على غرفة الملك كلما حان موعد الطعام ، فتلتهم غذاءه ، فلا تبقى ولا تذر . وكان الملك فى أكثر الأحيان لا يجد لقمة واحدة يتبلغ بها . لأن هذه الطيور لم يكن من دأبها أن تبقى على شىء ... حتى على الفتات ... ولم يكن يردها عن قصر الملك وعن غرفة غذائه خاصة شىء مطلقاً ... فلقد كانت تخمش وجوه الجند وتمزق جلودهم كلما حاولوا صدها عن بيت مولاهم ؛ وكانت تفلت من سيوفهم وتمرق من سهامهم بخفة تحير الألباب ، ولم يحدث مرة أن أصاب أحد الجنود منها غرضاً ، حتى جن جنون الملك وتضاعفت بلواه ، وجأر بالشكوى إلى آلهة السماء

ودهش جاسون ، وذهب بالقصة إلى رفاقه الآرجونوت ، فتقدم إليه البطلان الضرغامتان ، ولَدَا بوريس ، يقترحان أن يذهبا معه إلى الملك المسكين فيعرضا عليه حَرْباً عواناً يشبان نيرانها على هذه الطيور ، فاما أن يتم لها النصر عليها ، وإما أن تكون لها الكرة عليهما ... وصادف الاقتراح هوى فى نفس جاسون فانطلق معهما إلى الملك الذى هش لهما وبش ، وفرح بما عرضاه فرحاً شديداً ... فلما حان موعد الغداء ، جلس الملك وضيفاه — وكان جاسون قد عاد إلى السفينة — إلى المائدة . ثم لم تمض لحظات حتى أقبلت الطيور ترنق فوقهم وتُدَوِّم ، فوقف البطلان وامتشقا سيفيهما ، فلما هبطت ناوشاها مناوشة عنيفة ، ولم يمكناها من خدش واحد تحدثه بيدنيهما ، بل هجما عليها هجوماً ذريعاً وأخذا يسقطان منها عدداً كبيراً كان يهوى فوق الأرض فيلطخها بدماء حارة فائرة ... وكلما هبطت واحدة طفقت تشكو وتبث بلسان يونانى مبين ... ثم فرت بقية الطير ... لكن ملكتها حطت بمكان قريب من الملك وهتفت به كى يأمر بوقف اللحمة حتى تدعو بعض جندها لنقل جثث القتلى ... بيد أن الملك رفض طلبتها حتى تقاسمه أغلظ الأقسام وأوكدها أنها لا تعود إلى الاعتداء عليه أبداً ، ولا تعود إلى زيارة تراقيا كلها أبد الحياة ... فقاسمته ملكة الطير ، فأشار إلى ولدى بوريس فأغمدا حسامهما ، وذهبت الملكة وعادت بعد قليل فى شرذمة من جندها ، وبعد أن ذرفت من دموعها على قتلاها حملتها وذهبت إلى غير عود[1] ... وبرت قسمها ، فلم تزر تراقيا بعد هذا أبداً . وشكر الملك لولدىْ بوريس ، وعرض أن يستوزرهما ، فرفضا شاكرين ، ليصحبا جاسون

* * *

وكأنما ذاع نبأ الهزيمة فى عالم الطير فهبت جبارته تأخذ بثأر الهَارْپِزْ ؛ فإنه ما كادت الآرجو تبعد عن شطئان تراقيا ، حتى رأى راكبوها سرباً كبيراً من البزاة والنسور البواشق يقبل من علو كأنما تفتحت عنه أبواب السماء ، ثم لايفتأ يضرب الهواء بخواف من نحاس تلمع فى أشعة الشمس كالذهب ؛ حتى إذا كان فوق الآرجو طفق يقذف راكبيها بحجارة مسومة من سجيل ألحقت بهم أذى كبيراً ... ولم تنفع معها سيوفهم ولا قِسِيّهم شيئاً ، فاختبأت كل كوكبة منهم في قمرتها ، وخلا جاسون إلى عصاه السحرية يستشيرها ماذا يصنع لينجو بقبيله من هذه الطير ، فتكلم الرأس العجيب فأشار بأن يضرب الجنود بأغماد سيوفهم على دروعهم ضرباً شديداً فيحدث صوتاً تنزعج الطير منه ، وتفر مروّعة إلى غير عود ... ودعا جاسون جنوده ففعلوا كما أشارت العصا ، وفرت الطير ذاهلة ممزقة فى رحب السماء

* * *

وحانت بهم كوارث أخرى لاحصر لها ... ثم اقتربوا من برزخ سِمْپِلِجِيدْز الذى ليس لمسافر إلى مملكة كولخيس سبيل

(١) تعرف هذه الطير فى البثولوجيا باسم هارپز Harpies وروى أنها نفت نفسها فى جزيرة ستروفيد .

غيره ... وهو مضيق رهيب يصل ماء بحرين وعلى كل من عُدْوتيه صخرة هائلة ، فما تزال الصخرتان تنطبقان وتنفرجان ، بحيث تسحقان كل شيء يحصل بينهما فيصيّرانه هباء عفاء كأن لم يَغْنَ من قبل ... وكأيّن من سفينة جازف ملاحوها بالمرور بينهما ، فحطمتهم وعفت على آثارهم ... ولم يدر جاسون ماذا يصنع ، وجلس رفاقه يُقَلّبون الأكف على ما أنفقوا في مخاطرتهم هذه ، وظلوا ينظرون إلى الصخرتين ساعاتٍ وساعات وهما ترتطمان وتبتعدان ، وكلما سمعوا قصيفهما يجلجل في الآفاق جعلوا أصابعهم في آذانهم حذر الغشية وتَقِيّةً من الصمم ... وخلا جاسون إلى عصا چونو يستوحيها ماذا يفعل ، فما كانت غير لحظات حتى تكلم الرأس العجيب ، فأشار بأن يطلق جاسون حمامةً بين الصخرتين حين تنفرجان ، ويرى هل تمرق قبل أن تنطبقا عليها ، ثم يرى ، هل يستطيع أن يمرق ملاحوه بسفينتهم بمثل سرعة هذه الحمامة ... ؟ ودعا جاسون رجاله يستشيرهم ، ثم أطلقوا الحمامة البيضاء كما أشارت العصا ، ولكم كان عجبهم شديداً حين رأياها تفلت من بين الصخرتين إلا ريشةً واحدة انتُزعت من ذنبها فصارت هباء تثره الهواء ! واستعدوا للمقاحة ، وطفقوا يقيسون مسافة مابين البحرين في البحر الذي هم فيه ، ثم يطلقون حمامة كالتي أطلقوا ، بحيث يعملون مجاذيفهم حين تنطلق في الجو ... وأعادوا التجربة مثنى وثلاث ورباع ، حتى وثقوا من قدرتهم على قطع المسافة في مثل البرهة التي قطعتها فيها حمامتهم الأولى ... ودفعوا سفينتهم إلى أول المضيق ، وانتظروا حتى أوشكت الصخرتان أن تنفرجا ، ثم أعملوا مجاذيفهم بأذرع مستبسلة ، وأرواح ترتعد فَرَقاً من الموت في أبدانها ، فمرقت السفينة كما يمرق السهم عن سِيَة القوس ... واحربا !! لقد استطاعوا أن يفلتوا بفلكهم ، وإن حطمت الصخرتان سكانها ، كما حطمتا ريشة ذيل الحمامة من قبل ؟!

وما كادوا ينجون من هذه الموتة المحققة ، حتى انسدحوا في الفلك يلهثون ويتنفسون ، ويهنيء بعضهم بعضاً ...

* * *

وبلغوا كولخيس بعد عناء وبعد جهد ، ومَثَلوا بين يدي إيتيس ملكها الجبار ، فسَلّم جاسون ببلام الملوك ، ثم سئل عن طلبته فقال :

— عَزّ نصر مولاي ، لقد تجشمنا مشاق هذه السَّفْرة في سبيل الفروة الذهبية التي يقتنيها ملك الملوك ، لأنه نُمي إليّ أنها كانت من تراث آبائي ... ولا أدري كيف حصل عليها السيد بعد إذ أفلتت من كنوزنا

وقهقه الملك ملء شدقيه كالساخر المستهزئ ، ثم ربت على كتف جاسون وقال :

— أيْ بني ! أبْقِ على شبابك الغض ، وجمالك الفينان ، وعلى شباب هذه النخبة أولي القوة والفتوة الذين معك ... ! أي فروة ذهبية يابني تبتغي ؟ وتراث آبائك من ؟! لقد ذبح فركسوس الكبش بيديه أمام عيني ، وسلخه بين يدي ، وضحى باللحم والحوايا للآلهة ، ثم أهدي إلى الفروة الذهبية التي تعدل كنوز الدنيا بأسرها ! ففيم إذن تجشمك تلك المشاق ، وفيم مجازفتك بالسفر بين صخرتي سمبلجيدر ؟! وفيم كل تلك المهاوي والمهالك ؟ عد يابني إلى بلادك فهو خير لك ، وأبق على حياتك ، وانعم بحضن أمك الدافئ فهو أرحب لك من ميدان كله ذؤبان وغيلان ، ومنايا تثير الأشجان والأحزان !

وتبسم جاسون وتشبث بما سأل الملك ، فأخذ إيتيس يعظه وينصحه ، فلما رأى تصميمه واستمساكه ، قال له :

— « لك إذن ما طلبت يا بني ، ولكن اسمع ، واصغ إليّ ؛ إن أمامك مخاطر كنت أوثر ألا تلقى بنفسك في تهلكتها ، ولكن ما دمت قد غرتك الأماني ، وازدهتك هذه النخبة من أبطال بني جلدتك ، فاذهب إذن ، وحاول ما استطعت أن تلجم عِجْلَيْ ثلكان الهائلين اللذين ينقذف اللهب من منخريهما ، ويفتكان بكل من إقترب منهما ؛ ثم حاول بعد ذلك أن تحرث بهما الأرض الجُبُوب[1] التي تقدست باسم مارس ، فاذا فعلت فازرع ماحرثت بأنياب تنين كما فعل قدموس بأني طيبة ، فانك لا تلبث أن ترى الأرض تُنبت جيلا من المَرَدَة مقنعين في الحديد يلاعبونك بأسنة الرماح ، فاذا قدرت عليهم فان عليك أن تقتل التنين الهائل الذي يحرس الفروة الذهبية ، فاذا فعلت ، ولا أحسبك تفعل ، فان الفروة لك ، كنزاً ليس كمثله كنز ، وذخيرة من الذهب

(١) الصلبة المتحجرة